

محمّد (ص) إنسان الكلمة



«ثمة مقارنة للضماني في القرآن عن الكلمة تكمن في أن نتساءل عما قيل – وعما لم يُقل – عن محمّد. وتفرض نفسها على وجه السرعة معاينة مزدوجة.

المعاينة الأولى أن (محمّداً ذو حضور كلي). وليس ذلك لأنّه هو الذي أعلن الكلمة المنزلة فحسب، بل لأنّه يقوم على الغالب، داخل هذه الكلمة، بدور الناطق بلسان المتكلم: (قل...)، والإيعاز (الطلب، الأمر) يدخل باستمرار قولاً موضوعاً على لسان محمّد ويتكرر 332 مرة في القرآن.

إنّه يؤدي أيضاً دور مَنْ تتوجه إليه الكلمة الواجب نقلها، وذلك منذ هذه البداية الموضوعية في ظل آية الإعلان: (اقْرَأْ) (العلق/ 1 – 3). وفي مكان آخر: (وَإِنْزَاهُ لَتَنْذِرِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَيَّ قَلَامِكَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) (الشعراء/ 192-194).

وهذه الوظيفة، في مناسبات كثيرة، متعينة. وهكذا، على سبيل المثال، في سورة هود: (إِنْزَاهُ أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (هود/ 12). وهذه الوظيفة، وظيفه نذير، تكملها وظيفة التبشير بالنبا العظيم: (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَفُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُوثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) (الإسراء/ 105-106). فالإنذار والتبشير معنيان يتكرران بصورة متواترة في القرآن.

والمعاينة الثانية أن (محمّداً غير مسمى إلا قليلاً جداً) في القرآن: إن اسمه لا يتكرر إلا أربع مرات، وكلّ مرة في علاقة بوظيفته النبوية: (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ) (الفتح/ 29). (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) (الأحزاب/ 40)، بل: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَمُوتَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (آل عمران/ 144)، وأخيراً: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ

وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) (محمّد / 2). وثمة مرة خامسة، سيكون محمّد مسمى ولكن هذه المرة باسم أحمد:

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنَ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) (الصف / 6).

سيكون الأكثر جدارة بالمديح من كلّ الأنبياء، كما لفت النظر إلى ذلك راغب الأصفهاني، وخاتم الأنبياء، كما يشير إلى ذلك بدوي.

ولا يقول لنا كلّ ما سبق شيئاً محدداً عن الإنسان محمّد، ولكنّه لا يصفه لنا إلّا بوظائفه في خدمة التنزيل، والكلام الإلهي، وكما أنّه يتدخل مع ذلك، على نحو أو على آخر، في السور، فليس ثمة أي آية تحيل إليه صراحة أو ضمناً في السور من 1 إلى 70 سوى السورة 55 الرحمن.

وحتى الاتهامات بالكذب، وبالجنون أو السحر، هي خاصّة بهذا الدور في خدمة الكلمة. ومع ذلك، إذا كانت السور الأولى لا تعلّمنا شيئاً عن شخصية محمّد، فإنّ السور الأخرى تُخبرنا عن الوسط الذي كان يتحرّك فيه: إنّ القرآن يروي لنا، في 14 مناسبة، اتهامات بالسحر. وينبغي لهذه الاتهامات أن توضع من جديد بين الحالات العديدة التي ذكر القرآن فيها السحر: السحرة شخصيات لا تحدث الدهشة كما تشهد على ذلك بوجه خاص مداخلاتهم العديدة المسرودة في السورة الشعراء. إنّهم يأخذون سلطتهم من الشياطين كما يبيّن ذلك راغب الأصفهاني، وهؤلاء الشياطين الذين يشغلون، هم أيضاً، مكاناً في القرآن ذا أهمية نسبياً، ذلك أنّهم يتدخلون في 88 مناسبة.

ويقابل دور الملائكة دور الشياطين، ملائكة مألوفين أيضاً ويتدخلون بقدر ما يتدخل الشياطين. وسيكون محمّد متهماً، في هذا العالم الذي يتحرّك فيه (الجن)، بأنّه (مجنون) بسبب تبشيره. وثمة صفتان تنشدان على نحو أكثر صراحةً أيضاً، عبر محمّد، تلك الكلمة التي ينقلها: صفة كاهن في مناسبتين، وصفة شاعر:

(فَذَكَرُوهُ فَمَا أُنْزِلَتْ بِهِ عَمَّةٌ رَبِّكَ بِيكَا هَيْنِ وَلَا مَجْنُونٍ) (الطور / 29).

تلکم هي الآيات التالية التي تنكرر في القرآن هادفة دائماً إلى أن تعيد الكلمة الإلهية التي ينقلها محمّد إلى مكانها الحقيقي:

(إِنَّ نَزَّاهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَدُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الحاقة / 40-43).

وما ينجم عن كلّ ما سبق يبيّن أهمية محمّد بوصفه إنسان الكلمة. وتحتل هذه الكلمة مثل هذا المكان في عمله بحيث أنّ كلّ ما قيل لنا عنه، نبياً، رسولاً، منذراً، حامل النبأ العظيم، يحيلنا باستمرار إلى هذه الكلمة. إنّّه هو ذاته لم يُسمَّ إلّا قليلاً، وفي كلّ مرة يسمى نبياً. وأخيراً، تحيل الاتهامات الموجهة ضده، كالكذب، والكهانة أو الشعر، والجنون والسحر في أدنى حدّ، إلى الكلمة أيضاً.

وإذا كان ذلك لا يقول لنا شيئاً محدداً عن محمّد، باستثناء كونه إنسان الكلمة، وتحتل هذه الكلمة مثل هذا المكان في عمله بحيث أنّ كلّ ما قيل لنا عنه، نبياً، رسولاً، منذراً، حامل النبأ العظيم، يحيلنا باستمرار إلى هذه الكلمة. إنّّه هو ذاته لم يُسمَّ إلّا قليلاً، وفي كلّ مرة يسمى نبياً. وأخيراً، تحيل الاتهامات الموجهة ضده، كالكذب، والكهانة أو الشعر، والجنون والسحر في أدنى حدّ، إلى الكلمة أيضاً.

وإذا كان ذلك لا يقول لنا شيئاً محدداً عن محمّد، باستثناء كونه إنسان الكلمة، فالحقيقة أنّ الاتهامات بأنّه شاعر أو كاهن تتيح لنا، على الحال السليبي، أن نفهم فهماً أفضل وضع الكلمة في السياق الذي عاش فيه محمّد. كان ثمة، ولاريب، في عصر محمّد، كهنة وشعراء، ذلك أنّ المرء لن يفهم جيّداً، إذا كان الأمر غير ذلك، لماذا كان القرآن قد عُنِيَ أن يبرئ محمّداً من هذا الاتهام الممكن. يضاف إلى ذلك أنّ هؤلاء الكهان وهؤلاء الشعراء كانوا بالضرورة ذوي قول كان القرآن يمكنه، عند الاقتضاء، أن يلتبس به، بالنسبة للناس الذين لم يحزموا أمرهم. والكاهن، في رأي راغب الأصفهاني، هو مَنْ يخبر عن الأحداث الماضية والخفية على حال من الظن، والعرفاء هو مَنْ يخبر عن الأحداث القادمة على النحو نفسه. والحال أنّ محمّداً كان له قول أيضاً عن الأحداث الماضية كان الكافرون يمتنعون أن يشبهوه بالظن. فإن يكون هؤلاء الكهان والعرفاء قد وجدوا بعدد لا يستهان به، ذلك أمر يمكن أن تتيح الاعتقاد به كمية (الحديث) الخاصة بهم.

القداسة)، تضع الدنيوي، لا في التاريخ اليومي والحكائي للناس، ولكنّها تضعه في عرض يجعل هذا التاريخ العادي متعالياً حتى تجعل منه تاريخ التدخل الديني، كلمة تغزو كلّ مجالات الحياة الدنيوية لكي تضعها في المنظور المحدد لها في التنزيل.

وسيكون إذن إنسان الكلمة، محمّد، بصورة أساسية، إنساناً في خدمة التدخل الإلهي في هذا العالم. ►

المصدر: كتاب من القرآن إلى الفلسفة